

الشعر الجفري عند سيدي لخضر بن خلوف<sup>(1)</sup>.

الدكتور: عبد القادر فيطس، جامعة زيان عاشور الجلفة.

تقديم:

تنتمي القصائد الجفريّة إلى الشعر الدينيّ في موضوعها، وهي من أندر القصائد في الشعر الملحون الجزائريّ، والشعر الجفريّ - على قلته - فيه يتنبأ الشاعر بحوادث تقع مستقبلاً؛ بالاعتماد على الرموز «يختص الشعر الملحون بنوع يسمّى الجفريات، وهو التنبؤ بالحوادث المستقبلية، والواقع أنّهم يتخذون هذا الأسلوب كمطية للتقد السياسيّ، متخذين لهذه الغاية إشارات ورموزاً يدركها المعاصرون ويفهمون مغزاها»<sup>(2)</sup> أيّ وقائع يخبر بها على اعتبار ما سيكون، وكأنّها اختلاس من الغيب، وأمور الغيب لا يعلمها إلا الله باستثناء ما أطلعه الله من عنده للصالحين من عباده، فيضع على ألسنتهم كلاماً يقع لا محالة وعلى حدّ تعبير ابن خلدون «إنّ البشر محجوبون عن الغيب، إلاّ ما أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية». <sup>(3)</sup> وتعتمد قصائد الجفر - أحياناً - على الحروف كرموز للدلالة على توضيح شيء غامض، أو حوادث تأتي في المستقبل، ويرى الباحث عبد الحميد صالح حمدان في تقديمه وتحقيقه لرسالتين في سرّ الحروف ومعانيها، واحدة لابن عربيّ والأخرى "لأبي الحسن الحراليّ" بأنّ الحروف «فرع من علم الجفر، وهو علم يبحث فيه عن الحروف من حيث هي بناء مستقلّ بالدلالة، ويسمّى كذلك بعلم التّكسير، ومنه تعرف حوادث العالم إلى انقراضه، وقد أضحى هذا العلم، وعلى يد بعض الفرق الباطنية نوعاً من الممارسة السّحرية». <sup>(4)</sup> ويرى بعض العلماء أنّ الحروف وأسرارها سارية في الأسماء، وسارية في الأكوان وتتصل بالروحانيّات والفلك والتّنجيم، والصّوفية يرون أنّ الحروف لها دلالات خاصّة في أسماء الله الحسنى المشعّة بالأسرار والخواصّ وينال بها كلّ مطلوب، والحروف عندهم تكمن في الحقائق البسيطة للعلم الإلهيّ قبل انصبغها بالوجود العينيّ، ونجد أسرار هذا العلم مبثوثاً في كتب المتصوّفة كما يقول الحراليّ: «وكذلك في سائر الأسماء والمسميات في جميع اللّغات يختصّ كلّ اسم من الحروف بما يناسب أحوال تلك الأمة في ذلك المسمّى في إدراكها وانتفاعها به». <sup>(5)</sup> ويتخذ أسلوب الجفر كمطية للتقد الاجتماعيّ والسياسيّ برؤى مستقبلية؛ صادرة عن هبة غيبية يهبها الله لمن يشاء من عباده الصّالحين. ومن أشهر الكتب التي ألفت في الجفر كتاب "مفتاح الجفر الكبير" لمحمد بن عليّ السنوسيّ<sup>(6)</sup>، يعتمد المتصوّفة بكثرة.

ويبدو أنّ أصحاب الطّرق الصّوفية متأثرون بأفكار علم الباطن، حيث يتكلّمون عن كتاب الجفر للسنوسيّ، هذا الكتاب العجيب الذي يعجّ بالرموز، وكثير الغموض، ويعتبرونه من مصادر علم الباطن ومستودع لأفكاره، وأورد العياشيّ في رحلته مفهوم ابن عربيّ للجفر بأنّه «من الأسرار التي اختصّ بها الأنبياء وورثتهم من العارفين الكامل»، <sup>(7)</sup> والشعر الملحون كان وعاء الشعر الجفريّ لأنّ لغته تناسب خطابه، وفي المناطق السّهبية والجنوبية يطلق على الجفر اسم التّشد. ومن أشهر القصائد الجفريّة التي كانت البذرة الأولى في هذا الغرض؛ أوردها سونك في قصيدة "صلّو على النبيّ وارضو على العشر" <sup>(8)</sup>، وقصيدة أوردها الباحث "عبد القادر جلّول دواجي" هي "يا ناس اللي ما تقراوا اجايه" <sup>(9)</sup> وهما للشاعر الأخضر بن خلوف. ففي القصيدة الأولى "صلّو على النبيّ

وارضو على العشر" يتنبأ بما يقع ببلاد المغرب وإفريقيا، ابتداء من القرن الثاني عشر الهجري إلى ما بعدها، منها هذه الأبيات:

تفنى ببلاد سبته كثير من الإسلام وتشوف الهول والطراد بين الميم واللام  
أول اثنا عشر القرن بالقرون اعداد تبرأ وتزول هذه الهموم والانكاد  
ياذن الله وهران تعود للإسلام بالذكر والزكاة والصلاة والصيام  
وتعود الرحمة للغريب والأيتام ترخس جميع الأسعار من الزرع والاثمار  
طامة تجي من البحر كالنمل غوار وشي إسلام ترتد ثانيا للكفار  
ويجوك قوم الأتراك والعرب يا اجناد والرجال ضاجه والنسا مع الأولاد  
يا من سمعت قولي أفهم لذو الأوزان آخر الزمان ما تروا من الامحان  
تولي أهل المعاصي تجوز بالطغيان تخرج على الجزائر عساكر الخزيان  
هذا الكلام ميم وقبن القدر بعد تمام ذا القول تفحط العباد  
نوريك حدها من بلاد محمد وهران على أثر قولي ذا الحديث وبوحا  
حتى تقول ربي وخذ هذه الروحا يا بن خلوف بعدك تشوف ما يطرا  
وتعود فرح وسرور ما ترى كشرنا بالعلم والعمل والمحاضر والقرآن  
ورجال غايطين في مساجد الآذان واطعام من تولى وسوقها رنان  
ياذن الله ربي هو أعلم وادرا تدي قليل من الإسلام مكبل أسرا  
والناس باقيه في الهلاك والقهرا ويوقع طراد كثير ثما في غمرا  
والكور يخبط مع الرصاص لا فترا لو كان تطول عمرك ترى هموم كثيرا  
تكثر أهل المعاصي تغيب أهل الخيرا حولي وقوتي بك صاحب التدابير  
بالبومبه والمدافع ومحيرق تزفرا واليا على أثره زيد الدال في الجرا  
تبقى نحو شهرين ترجع الكشرا لطرابلس حتى لتونس الخضرا

في هذه القصيدة يتنبأ الشاعر بزوال المصائب والهموم والأحزان وتسود الأفراح، ويعود الإسلام إلى مدينة وهران، وتكون كعهدنا منارة للعلم والنشاط التجاري؛ إلى أن يأتيها الاستعمار الإسباني، حيث يعيشون في أرضها فسادا، ويعذبون سكانها وينهبون خيراتها؛ ثم يقيض الله رجلا يهبون لنصرتها من عرب وأتراك ليحرروها من الإسبان، وبعدها يعود الأمن والاستقرار، وتتوحد القبائل والعروش وتتآخى الناس، وبعد مدة تسقط في برائن الفساد والمعاصي فيقل الخير ويكثر الشر، فيستغل الإسبان هذه الظروف ليعاودوا الهجوم على وهران وسواحلها، حاملين معهم عدة وعتادا كبيرين من مدافع وأسلحة وقنابل فتاكة، ويعلن الجهاد مرة أخرى، ويتصدى لهم

السُّلطان محمد في معارك طويلة؛ تدوم شهرين، وأثناء ذلك ينتشر القحط والمجاعة، ثم يعود السُّلّم بانتصار السُّلطان، ويعمّ الاستقرار في الجزائر عاقمة وتركيا وطرابلس وتونس.

وفي الختام استعمل أربعة حروف هي: الميم، القاف، الياء، الدال ومجموعها "مقيّد" فارتباط العدد بهذه الحروف يعني شيئاً ما، وهذا يرجع إلى تأثير جدول الأبجدية<sup>(10)</sup>، حيث يقترن كلّ حرف بعدد معيّن، ورقم ثابت لا يخصّ غيره. فالميم مقرون برقم 40، والقاف مقرون برقم 100، والياء مقرونة برقم 10، والدال مقرون برقم 4.

وهذه القصيدة غير مؤرّخة ولم يورد الشّاعر إشارة أو تلميحا عن سبب نظمها، إلاّ أنّها تعجّ بالأحداث والوقائع التي تنبأ بها، وحدثت فعلا حسب المصادر التاريخية التي تؤرّخ للاحتلال الإسباني على السواحل الجزائرية. والقصيدة الثانية "يا ناس اللي ما تقراوا اجابه" يتنبأ فيها بما سيحدث في آخر الزّمان من كثرة المعاصي والفساد وأحوال النّاس في حبّ الدّنيا ونسيان الآخرة، ويكون قد استقفاها من أحاديث الرّسول صلّى الله عليه وسلّم حول السّاعة وعلاماتها، فيقول:

يا ناس اللي ما تقراوا وجايه	ما معاه مروه ولا مسقمه
والشريف هنا والهييه يرتمي	الكذب والخدعه والجور والحسد
الغتبه والنهب في الجار بالشهود	قريتها شاو والحال على أذن الجدود
قرن الثالث عشره وخوه في الوجود	فتاة بنت الشرفه في الهم والكروود
والنسا في الأسواق الا يشبروا	يوم ليهم وغدا لهواك ينكروا
القلوب ملانه بالغش والسدود	تابعين الربا واليجره والحفان
الخديعه في الجوامع وقت السجود	أهل الخديعه غيروا الحكمه في البلاد
مشمتمين الضحك تمثيل للقروود	الخلوفي راقب تشوف ما يعود
غارسين الركايذ خيمه بلا عمود	يعود صاحب المال مشرف النسب
بالعيون يشوفوه والقلوب عاميه	لا وقر لا حشمه لا عز لا حياء
تاريخ عظيم جبرتو يا أهل الكرام	الهموم يا سره راهي للناس جايه
عقبت الدنيا جات اليوم للحضر	والشرف معها سجره خاويه
متعاندين على صرف المال والشباح	مالكيين الفحشا بالصوت والصياح
وسيوفهم في المقبل تعود حافيه	المسنه من دون الجار حافيه
يعظموا الأميين تقوى أهل الخمر	وارثين الكرسي أمره في الشرع
لا حديث يوالم لا قلوب صافيه	خذ تقريب الساعه حق بلا حساب

في هذه القصيدة يتنبأ فيها بما يحدث في آخر الزمان، من آثام ومعاص، وأحوال المسلمين في حب الدنيا والغفلة عن الآخرة، حيث يشبه المسلم الغافل عن أمر دينه كالحخيمه بلا أعمدة ترتكز عليها، ويتحسر الشاعر على سوء أحوال الزمان، وكيف انقلبت أمور المسلمين، يشرف ويعظم صاحب المال ويهمش الأصيل وينتشر الخداع، والتعامل يكون بالكذب والنفاق، ويغيب الحياء والوقار، ويشيع الظلم والنهب والغيبة، ويشبه الفتاة الشريفة بالشجرة بدون ثمار، لا يأبه بها أحد ولا يهتم بها أحد، وبذهاب القيم الفاضلة محل محلها التفسخ الأخلاقي بزيادة النساء المتبرجات اللاتي لا هم لهن إلا الترتين، وتضييع المال في الفواحش واللغو. وتنبأ بانتشار الحسد والبغض بين المسلمين، والتعامل بالرأب والخداع والظهور بغير الاعتقاد السليم في المساجد، كما يرتفع شأن الأميين ومتعاطي الخمر وتوكل لهم المناصب العليا في السلطنة.

إن تنبؤات الشاعر تجاوزت زمنه إلى أزمان أخرى، ويبدو أنه اطلع على ذلك من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم والسيرة النبوية والتراث الديني؛ فوظفها في قالب شعري، وظلت هذه القصائد راسخة في الدواكر الشعبية، ويحملها المخيال الشعري جيلا بعد جيل.

والخلاصة أن أشعار الجفر قليلة جدا في الشعر الملحون، وأن أكثرها موجود في التعبير الشعبي، على شكل أمثال وحكم ونصائح، وأحيانا تأتي في شكل ألغاز تتضمن تنبؤات في المستقبل، بعضها يأتي على السنة الأولياء والصالحين أو الدراويش أصحاب الأحوال الذين اصطفاهم الله، وهبهم بعض الأسرار من الغيب، تأتي عفوية على ألسنتهم، وتستقرأ أحداثا تقع مستقبلا. ورغم هذا فقد استطاع "الأخضر بن خلوف" أن يؤسس لتنبؤاته شعرا بحكم أنه أحد الصالحين والزاهدين الذين وهبهم الله هذه المنحة وأطلعهم على هذا القبس من السر الإلهي.

### -الإحالات:

1- هو الشاعر لكحل بن عبد الله بن عيسى الشريف، كان مولده في أواخر القرن الثامن الهجري بمقراوة، وعاش القرن التاسع للهجرة، له قصائد كثيرة في التوسل بالرسول صلى الله عليه وسلم للتفصيل ينظر ترجمة سيدي الأخضر بن خلوف، في الديوان، جمع وتقديم: محمد بن الحاج الغوثي بخوشة، مطبعة ابن خلدون للنشر والتوزيع، تلمسان، 2001م، ص: 23 وما بعدها.

2 - محمد الفاسي، معلمة الملحون، القسم الأول، من الجزء الأول، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، المغرب، 1406هـ-1986م، ص: 39.

3 - ابن خلدون، المقدمة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، د ت، ص: 330.

4 - محي الدين بن عرابي، سر الحروف، وأبي الحسن الخراي، مواد الكلم في السنة جميع الأمم، رسالتان، تقديم وتحقيق عبد الحميد صالح حمدان، المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، مصر، د ت، ص: 06.

5 - المصدر نفسه، ص: 53.

6 - محمد بن علي السنوسي مؤسس الطريقة السنوسية في التصوف المتوفي سنة 1276هـ-1859م.

7 - العياشي عبد الله بن محمد بن أبي بكر، الرحلة العياشية "ماء الموائد"، ج2، مطبعة فاس الحجرية، المغرب، 1316هـ، ص: 07

8 - ينظر: سونك، الديوان المغربي في أقوال عرب إفريقية والمغرب، تقديم: أحمد أمين، سلسلة الأنيس منشورات موفم للنشر، الجزائر، 1994م، ص: 367 وما بعدها.

- 9- ينظر: عبد القادر جلول دواجي، الخطاب الشعريّ عند سيدي الاخضر بن خلوف، دراسة تحليليّة، رسالة ماجستير، إشراف الأستاذ محمد سعيديّ، جامعة تلمسان، 2002م - 2003م، ص: 284 وما بعدها.
- 10 - جدول الأبجدية اسم للألفاظ التي جمعت بما حروف الهجاء العربية لحساب الجمل، ويسمى كتاب الأبجدية، حيث نجد كل حرف مقرون برقم معيّن، ويستخدم في الفلك وعلم التنجيم. ينظر: لويس معلوف، المنجد في اللّغة والأدب والعلوم، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، ط5، د ت، ص: 01.